إستراتيجيّات المواجهة في المقامة البغداديّة، من منظور تداولي

Strategies of confrontation in the Baghdadi shrine, from a pragmatic perspective

سعيد بومعزة*
جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)، boumaza.said@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2025/09/01 تاريخ القبول: 2025/10/28 تاريخ النشر: 2025/12/15

ملّخص:

تمثّل المقامة البغدادية للهمذاني أنموذجا خصبا للاشتغال التداولي؛ إذ تعدّ ملتقى العلاقات التخاطبيّة التي تقوم على فعل التلفّظ، وكفاءة الإنجاز، وبلاغة الإقناع، من خلال امتلاك عيسى بن هشام لإستراتيجيّة خطابيّة كفيلة بسلب مال ضحيّته(السّروجيّ)، وقد تعدّدت إستراتيجّيات المواجهة مابين الكفاءة الذهنية، والقوليّة، والجسديّة، والسلوكيّة، وفي سياق الحديث عن إستراتيجيّات المواجهة والإقناع، نحصي تعدّد مقصديّات المقامة الهمذانيّة بين التمثيل البرّاني الذي يهدف إلى فضح المسكوت عنه، وتعرية الواقع العباسي المنحّط، والتمثيل الجوّاني الذي أبان عن مقدرة الهمذاني في خلق كتابة قصصيّة تعيد الاعتبار لبلاغة الكلمة.

الكلمات المفتاحيّة: *المقامة البغدادية، الاشتغال التداولي، الضحيّة، الإقناع، المقصدية.*

Abstract:

Al-Maqama Al-Baghdadia of Al-Hamdhani is a fertile model for pragmatics, as it is the meeting place for conversational relations are based on the act of uttering, the efficiency of achievement, and the eloquence of persuasion, he had discursive strategy that would be able to rob the money (victim), and there were many strategies between the fraudulent actor and the potential victim, (mental, verbal, physical),. we enumerate the multiplicity of the intentionality (Al-Maqama Al-Hamadaniya) between the external representation, which the unspoken and the deterioration of the Abbasid, and the representation that demonstrated Al-Hamadhani's to create a new narrative by Rhetoric's word.

Keywords: *Al-Maqama Al-Baghdadia, model for pragmatics, Victim, Persuasion, Intentionality.*

* المؤلف المرسل

- مقدّمة:

إذا عدنا إلى السرود العربية القديمة، -مع ما تحوزه من أخبار العيّارين، وحكايات الشطار، ومغامرات المكديين والساسانيين،- وجب عدم إغفال نصوص فن المقامة التي ألّفها بديع الزمان الهمذاني(969م/1007م)، والتي تعدّ أنموذجا قصصيّا ثريّا يجمع بين الطرفة، والحيلة، والحوار، بطلها –عموما- مكديّ محتال، وقد رأينا أنّ الاشتغال الفنيّ للمقامة قائم على خصوصية العلاقة بين المتخاطبين التي من شأنها أن تشكّل عتبة هامة لولوج النص التراثي حداثيا، وتعدّ المقامة البغدادية أنموذجا خصبا لما تحوزه من علاقات تواصلية وتخاطبية قد تثري بحثنا وتحدّد مساراته الدلالية، فإذا كان بالإمكان رصد هذه العلاقات التي تعدّ –في عمومها متشعّبة ومتشابكة- فكيف تمّت قولا وسلوكا وممارسة، في ضوء مقولات المنهج التداولي (أفعال الكلام، والحجاج، ومبادئ التعاون، والقصدية)، وهل استطاعت هذه المقولات تتبّع مسارات الخطابات المعلنة والمضمرة داخل نص المقامة البغدادية، والكشف عن خصوصية المكدي والضحيّة ، وواقع البيئة العباسية خلال تلك الفترة؟.

1- الخطاطة السردية في نص المقامة البغدادية:

يحوز نص المقامة• البغدادية للهمذاني مجموعة من الآليّات النصيّة التي تجعله مؤهلا للمقاربة التداوليّة، كونه يقوم على مواجهة خطابية ثنائيّة القطب، تجمع –في عمومها- بين المحتال والضحيّة، فإذا كان حضور الضحيّة يختلف من مقامة إلى أخرى بداعي التيمة، والمكان، والزمان، فإنّ المحتال –في جلّ المقامات- هو نفسه "أبو الفتح الإسكندري"•، ووجب أن نفرّق بين الرواي والشخصيّة الحكائيّة، فالأوّل وظيفته تقديم الحكي(عرضه)، وأمّا الثاني فيضطلع بوظيفة التمثيل، ويمكن تتبّع ذلك من خلال محكي المقامة الذي يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام•، بحسب التجلّي الفنيّ والتيمي وهي:

1-1- الاستهلال السردي(incipit narrative): ويعدّ لازمة سردية في جلّ النصوص السردية العربية القديمة، على غرار ألف ليلية وليلة(**بلغني أيّها الملك السعيد ذو الرأي السديد**)، وكليلة ودمنة(**زعموا**)، وحكايات الجاحظ(البخلاء)(**حدّثني شيخ من البخلاء**)، وغيرها، ويتميّز الاستهلال السردي "**حدّثنا عيسى بن هشام**"[1]، بطابعه الإيجازي الذي يتكوّن من عنصري الإخبار والإسناد، فالإخبار خصيصة عربية قديمة عرفت من خلال المسامرات، وغيرها من أنماط الحكي العربي القديم، ويقوم على تقديم الحكاية (الوظيفة الإخباريّة)، ويمكننا تمثّل ذلك من خلال ربط الحكاية بقائلها (عيسى بن هشام)، وهنا يأتي دور الإسناد الذي يتفرّد بالوظيفة المرجعيّة

للحكاية، والإسناد في المقامة البغدادية يعود لعيسى بن هشام، فهو راوي الحكاية وبطلها، ويتميّز بكونه شخصيّة تخييليّة، لا تحتلّ فضاءً زمانيّا ومكانيّا معيّنا، وربما أراد الهمذاني بهذا التوظيف أن يجعل مقاماته قادرة على تمثّل الواقع العباسي، دون تحديد الأثر المرجعي والإحالي (l'effet référentiel)، شخصيّة تخييليّة زئبقيّة قادرة على التوغّل داخل التاريخ.

يتفرّد الاستهلال السردي بخاصيّة تداوليّة متمثّلة في حضور جمهور المتخاطبين، وفعل التلفّظ مرتبط بجماعة المقامة، حدّثنا، وضمير الجمع "نا " يعود على الجماعة التي تعدّ عنصرا مؤسّسا لفعل المقامة، في حين يعود فعل الإسناد لشخصيّة عيسى بن هشام الذي يعدّ إحالة بعدية، سيكون لها دور وظيفي داخل التيمة المهيمنة، ولعلّ من وظائف الإحالة البعدية **"ربط السّابق باللاحق، وممهّدا للانتقال إلى معلومات جديدة"**[2]، وتبدأ بذكر الضمير المستتر هو، وتنتهي بذكر الشخص (الاسم)، وقد أدّى ذلك –من منظور اللسانيات النصيّة- إلى تعضيد البنية المعجميّة؛ لما تقتضيه البنية النحويّة والدلاليّة، مع ذكر جميع عناصر المقامة من المخاطِبين(الجماعة)، والمخاطب(عيسى بن هشام)، والحكاية (حدّثنا)، ويمكن عدّ الاستهلال السردي فعلا تخاطبيّا سياقيّا -في غياب القارئ- كونه منفصلا في حدود الزمان والمكان عن الحكاية، ويتحوّل جمهور المخاطَبين إلى متلقّين من الدرجة الأولى- فالمحكي ينتقل بفعل المشافهة من الراوي(عيسى بن هشام) إلى الجمهور(جماعة المقامة)، كما أنّ الراوي في الاستهلال السردي يعدّ راويا منفصلا عن محكيه، أو مفارقا لمحكيه التي قد تتحدّد **"بإيجاد علاقة ما بين ما يروي والبنية الثقافية للمرجع"**[3]، وظيفته تنسيق الحكي، وتقديمه مع وجود فاصل زمني ومكاني، وهو فعل تخاطبي مقامي من الدرجة الثانية- في وجود القارئ- فيتحوّل المتلقّون الضمنيّون إلى جمهور المخاطَبين من الدرجة الأولى، كون الخطاب ينتهي عند حدود استماعهم(فعل المشافهة)، ورؤيتهم(فعل القراءة)، فالحديث –هنا- يأخذ معنى الإخبار الذي بدوره يأخذ معنى الحكاية، ولأنّ الاستهلال السردي –في جلّ السرود العربية القديمة- يتميّز بطابعه الإيجازي، فقد استطاع أن يؤدّي بعض الوظائف منها: التشويق، ويتجلّى ذلك من خلال مبرّرين اثنين هما: الشكل الحكائي للإخبار(حدّثنا)، ذلك أنّ المقامة تقوم -في أساسها -على ما يشبه المسامرات التي تتميّز بطابعها الحكائي، فهي لا تهتمّ بالمسار المرجعي للحكاية(صادقة أم كاذبة)؛ بل بكونها نوعا" **من القصص الذي يصدر عن موهبة أدبيّة، غايتها ابتداع قصّة، وليس رواية واقعة"**[4]، والشكل التخييلي للإسناد(عيسى بن هشام)، فحضور التخييل كعنصر فنّي يخرج الإخبار من حيّز الواقعيّة (الموجود) إلى حدود تلغي الطابع التوثيقي للحكاية(الإمكان)، وبذلك يشتغل عنصر التخييل على خلخلة النسق السوسيوثقافي للمخاطَب، وجعله مستعدّا لولوج المحكي العجائبي

والغرائبي، كما في حكايات ألف ليلة وليلة، وحكايات كليلة ودمنة، رغم أنّ مقامات الهمذاني تتميّز بطابعها الواقعي، ونمطها التسجيلي في بعض الأحيان.

2-1- التيمة المهيمنة (le thème dominant): تختلف تيمات المقامة من نصّ لأخر ، وتتفرّد المقامة البغداذية بتيمة الكدية والاحتيال من أجل إشباع رغبة الجوع، فعيسى بن هشام الذي يمكن عدّه الفاعل المحتال في الحكاية، وجد نفسه أمام واقع بيولوجي (الجوع والحاجة إلى الأكل)؛ ولإشباع هذه الرغبة عمد إلى ممارسة الاحتيال على السوادي؛ باعتباره الضحيّة محتملة•، فكلاهما يدخل في مواجهة حوارية تقتضي تواصلا تخاطبيّا بين متكلّم(مخاطِب) ومتلقٍّ(مخاطَب)، وقناة التواصل، فالمحكي يؤسّس لفعل تخاطبي تواصلي بين الأنا والآخر، كون الحكاية تجمع الراوي والشخصيّة البطلة داخل بوتقة كلاميّة واحدة، فالذي يحكي هو نفسه الذي يفعل وينجز، بينما الآخر هو الذي يواجه الأنا في لغته، وإيماءاته، **"ولا يكون هذا الآخر فقط مستقبلا أو سامعا بل يكون فاعلا أي سائلا ومجيبا في الآن نفسه"**[5]، ولعلّ غياب هذا الطرح بشكل واضح وجلّي، راجع إلى فاعليّة الإستراتيجيّة التي طبّقها الفاعل المحتال، والتي تحوّلت شيئا فشيئا إلى ما يشبه خطاب الهيمنة والتملّك عن طريق أسلوب المناورة والمراوغة، وانتهت بإقصاء الفاعل المحتال للسّواديّ من هذه المواجهة، وجعله طرفا مهزوما بعدما تعرّض للضرب من طرف الشوّاء، وأرغم على دفع ثمن الغذاء، رغم كونه الضيف وعيسى بن هشام المضيف، وهكذا نجد أنّ التيمة المهيمنة في نص المقامة، تتعرّض إلى ما يشبه التناسل التيمي، فقد حوّلت هذه التيمة نص المقامة إلى نص تسجيلي سوسيوثقافي وظيفته تحديد المظاهر الاجتماعيّة للعصر العباسي لا سيما صنوف الأكل والحلويّات، فمن تيمة الاحتيال استعرض الراوي(عيسى بن هشام) البنية الاجتماعيّة للمجتمع العباسي، ويمكن تقسيم الجزء الثاني للحكاية إلى تيمتين اثنتين هما: تيمة الاحتيال، وتيمة المظهر الاجتماعي الخاص بالوليمة، فالتيمة الأولى (الاحتيال)، يمكن عدّها ركيزة نص المقامة وعمودها الدلالي، ونسقا ثقافيّا مضمرا، وكأنّ الهمذاني عبر مجمل مقاماته يشير إلى "**الفساد نفسه وهو يستمر دون أن نستطيع القول بأنّه يتضاعف أو يتناقص؛ إنّه يستمرّ فحسب بإصرار وإسهاب**"[6]، وبصورة ترصد حالة الانحطاط السيّاسي، والديني، الاجتماعي الذي وصل إليه العباسيّون دولة، ومؤسّسات، ومجموعات اجتماعيّة، هذه الأخيرة يمكن حصرها في نفر "**من المكديين وبني**

ساسان يتوسّل باللصوصيّة عن طريق لطائف الخدع وغرائب الحيل"[7]، وقد أدّى ذلك إلى إنتاج نماذج بشرية امتهنت حرفة الكدية والاحتيال من أجل سدّ جوعها وعوزها، وأمّا التيمة الثانية(المظهر الاجتماعي) فيمكن ربطها بالأنساق الثقافية الظاهرة والمعبّرة عن المجتمع العباسي .

1-3- القفلة السردية (épilogue narrative): وهي خاتمة نص المقامة البغدادية، وتتميّز بخطابها الواعظ، فغرضها النصح، والإرشاد، والإصلاح، وهي تحصيل مفاجئ لمحكي المقامة، كون البعدي الواعظ ينسف القبلي المكدي في طروحاته، وإستراتيجيّاته، وقد جاءت القفلة السردية في بيتين شعريين:

"أعْمِلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَهْ لَا تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَه
وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ فَالمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَهْ"[8]

يتميّز البيتان الشعريّان بخصائص النصح والإرشاد والموعظة، وهو حال كلّ النصوص السردية العربية القديمة التي تضمّنت خواتم سردية على غرار حكايات كليلة ودمنة، وحكايات الجاحظ، وغيرها، وهذا يدلّ على موقف انفعالي تأثّري، وظيفته جعل الخطاب موجّها إلى جمهور المتلقيّن، فالمقامة –من هذا المنظور- تحمل رسالة إصلاحيّة غايتها تصوير مظاهر الكدية ما بين الواقع والمآل، حتّى وإن تضمّنت الحكاية طرفة ونكتة، فإنّ الخاتمة كانت وبالا على السّواديّ، دون أن يكون له دخل في ذلك، كما بيّنت لنا خاتمة المقامة أنّ الموضوعات ذات الطابع الهزلي التي لا ترتكز على مقدّمات أخلاقيّة وإنسانيّة غالبا ما تكون نهايتها مأساويّة، مثلما حدث مع السّواديّ، وبذاك فالمقامة تحاول من خلال القفلة السردية أن تستعيد الوظيفة الأخلاقيّة للأدب من أجل" **ضمان استمرارية الهويّة وترسيخ قيمها ومكوّناتها ضمن إطارها الثقافي والحضاري"**[9]، وقد اشتغل الهمذاني في ذلك على عنصري الحكمة والرزانة المغيّبين داخل أجزاء الحكاية؛ بسبب الطابع الفنّي للمقامة، وكذا عنصر التناص في المقطع الشعري **(فالمرء يعجز لا محالة)**، المأخوذ من خطبة الأكثم بن صيفي التميمي الذي عدّ من فصحاء العرب، وحكمائهم، وأكثرهم رزانة في حل المشاكل بين القبائل العربية، أو غيرها من الأمم، وهو تناص قصدي غرضه **"مسايرة النص السابق، ومساواته في إخراج المعنى"**[10]، فالهمذاني من خلال هذا التجلّي الطروسي(les traces) أعاد تمثّل الجانب الحكيم في شخصيّة عيسى بن هشام، أو كأنّه أعاد هدم التصوّر القبلي له، وبناء تصوّر بعديّ قائم على المزاوجة بين الطرحين: التأثري والوعظي، وإخراج الفاعل المحتال من دائرة الرغبة الساديّة إلى فضاء العوز القهري.

تفرّدت القفلة السردية بخاصيّة تخاطبيّة أعادت الاعتبار للمتلقي الضمني، فإذا كان حضوره(المتلقّي) في التمفصلين الحكائيين السابقين، تقتضيه آليّتي الفهم والتأويل، فإنّ حضوره في القفلة السردية يعدّ آلية تخاطبيّة، كون الفاعل المحتال وجّه خطابه الشعري (البيتين)، وهو في عزلة بعيدا عن السّواديّ، فهو من جهة يناجي ذاته ويعظها بمساوئ فعل الكدية والاحتيال على الناس ، ومن جهة أخرى يمرّر خطابا وعظيا مقصودا إلى القارئ؛ مفاده التعويل على الذات؛ وعدم الانسياق وراء شيطان النفس والهوى، وإن عظمت مشاغل الدنيا، وخطاب البيتين فيه دعوة إلى استعطاف عيسى بن هشام، بعدما أدرك عظيم فعله، والاستعطاف قد يحمل معاني المسامحة، والغفران، والتوبة عن فعل الشيء، بعد إحساسه بأنّ محاكاة أبي الفتح الإسكندري في حيله ومكدياته، لم تكن بتلك الملاحة والطرفة التي كان يتوقّعها.

كان الهمذاني موضوعيّا(Objectivement) في نصّه يقف **"موقف محايدا بحيث لا يريد لشخصيّاته لا الخير ولا الشر، فسواء عليه أنالها مكروه، أم أصابها الخير"**[11]، ولعلّ ذلك راجع إلى حضوره كجزء من منظومة متهالكة أنتجت أفرادا مكديّين ومحتالين، فنجده يصوّر عيسى بن هشام، ولا يثني عليه، فحضوره كأديب عباسيّ يحمل رسالة إنسانيّة وأخلاقيّة، كما نجده يصوّر السّواديّ ولا يعقّب عليه. فالطرح الموضوعي في المقامة البغدادية عبّر عن موقف النخبة من حالة الفساد المنتشر في أرجاء الحكم العباسي، فهو لا يدين الطرفين، ولكن في المقابل يفضح- وبصورة ضمنية مضمرة-صنّاع القرار داخل بلاط الخليفة الذين كانوا سببا في الانحطاط الاجتماعي، والأخلاقي، والديني.

2- عيسى بن هشام والكفاءة القولية، من التلفّظ إلى الإنجاز:

اعتمدت خطّة الفاعل المحتال(عيسى بن هشام)؛ للإيقاع بضحيّته المحتملة(السّواديّ) مجموعة من الإجراءات المتعلّقة بالجانبين السياقي والمقامي، فإذا عدنا إلى الجانب السياقي، نجد كفاءة الفاعل المحتال في الربط بين الفضاء الزمني والمكاني، ويمكن وسمه بالتعاضد الزمكاني، وتجلّى ذلك من خلال مؤشّرات قبلية مرتبطة به، تنبئ عن تصوّرات بعدية متعلّقة بالزمكان، وهذا يحيلنا على الجانب المقامي المرتبط بذات الفاعل المحتال، والمتمثّل في الإحساس بالجوع(حالة بيولوجيّة)، وتوقه إلى إشباع هذه الرغبة عن طريق اختيار الظروف المناسبة لإنجاح خطّته، فإستراتيجيّة المواجهة عند الفاعل المحتال تتجسّد من خلال ربط المقام بآلية **" تسلسل (ENCHAINEMENT) الأفعال اللغوية داخل الخطاب"**[12] ، وقد ربطها الباحث عبد السلام عشير –انطلاقا من مجمل أعمال الناقد الفرنسي **جاك موشلر(Jacques Moesler)** -) (1954 حول الحجاج والمحادثة- بمبدئي الملاءمة (APPROPRIE)، والتساوقيّة

(COTEXTUELLE)، فقد بدأ الفاعل المحتال إستراتيجيّته بمحاولة الربط بين الحالة البيولوجية التي تفترض إسقاطا زمنيّا يمتدّ حتى حدود الغذاء، والفضاء المكاني الذي يلبّي هذه الحالة، وهنا تحدّدت الكفاءة الذهنيّة في ربطه بين المرجعية التاريخيّة والسوسيوثقافيّة في إنتاج نص تخييلي يعيد تمثّل السياق بطريقة إبداعيّة؛ إذ **"كلّما الصورة المتخيّلة أقرب من الواقع إلاّ وكانت عنصرا حاسما في التواصل والإقناع"**[13]،فالوعي الجمعي(conscience collective)العباسي اشتغل خارج سياق المقامة بطريقة متماثلة جعلت المجموعات الاجتماعيّة تتبنّى نفس وجهات النظر، ويمكن أن يؤدّي انعكاس هذا الطرح داخل المقامة إلى سلوك إسقاطي معبّر عن نمط الكدية والاحتيال لدى الفاعل المحتال ومن سار خطاه، فالفكرة –في عمومها- مرتبطة بالوعي الأدبي، ورؤية العالم العباسي.

يبدو الفاعل المحتال متمرّسا وعلى قدر كبير من الاحترافيّة في الإيقاع بضحيّته المحتملة؛ إذ تقتضي إستراتجيّته ملاحظة الضحيّة وتمييزها عن غيرها **"فإذا أنا بسواديّ يسوق بالجهد حماره، ويطرّف بالعقد إزاره"**[14]، فالمواجهة بين الطرفين انطلقت من خلال هذا المقطع السردي– ولو في مستواه الأحادي-؛ لأنّه استطاع أن يقدّم لنا الجانب الذهني والسلوكي للفاعل المحتال، من خلال تركيزه على الجانب البرّاني للضحية المحتملة، (الجهد، والمال)، واكتشافه لجانبه الجوّاني(عدم الاعتماد على القدرة الذهنية لتحريك الحمار)، وقد أدّى هذا المقطع السردي العديد من الوظائف منها: تحديد كفاءة التمييز لدى الفاعل المحتال المرتبطة بالحضور الذهني، والوقوف على سذاجة الضحية المحتملة من خلال تعامله مع حماره(استعمال الجهد العضلي، بدل الجهد العقلي، وطريقة تحريكه للمال، الشيء الذي يجعله معرّضا إمّا للسرقة أو الاحتيال، ونص المقامة –في هذا السياق- يفتح المجال واسعا أمام ثنائيّة الحضر والبدو، والتي أخذت أبعادا خطيرة جعلت الحضر ينظرون إلى البدو على أنّهم سذّج ويسهل خداعهم، وهذا ما حدث مع السواديّ، فبعد ممارسة فعل الملاحظة والتمييز، أنهى الفاعل المحتال تعليقه بقوله" **ظفرنا والله بصيد"**[15] ، والذي يمثّل تجليّا لإنجاز الفعل الكلامي التلفّظي على مستوى الإدراك، قبل أن ينجز على مستوى السيّاق، فجون لونغشاو أوستين(John Langshaw Austin)(1911-1960) عندما تحدّث عن قوّة الأفعال الكلاميّة، أبرز خصائصها اللغويّة، وكذا الذهنيّة المتعلّقة بقوة الإدراك، فلا عجب أنّ الفاعل المحتال تلفّظ بفعل الظفر قبل أن يتحقّق هذا الفعل وينجز؛ فالتلفّظ ذات الطابع المكدي شديد الصّلة **"بالمقاصد التي تسهم في إضفاء النسقية على نشاط التلفّظ وحركية التفاعل في الحوارات والمحادثات"**[16]، بخاصّة إذا ارتبط بفاعل متمرّس كعيسى بن هشام الذي عايش أبا الفتح الإسكندري مكدياته ومغامراته في اللصوصيّة والاحتيال، فإستراتيجيّة المواجهة عنده تبدو وكأنّها تتحرّك داخل منظومة مفاهيميّة متكاملة، بحيث تتحوّل هذه المنطومة إلى بنية جامعة لكل الأبنية المقاميّة، والمرجعيّات السيّاقيّة، فالكل

يشتغل مع بعضه ولبعضه، وفي حال اللصوصيّة فإن المحتال يسبق دائما ضحيّته بخطوة، يتوقّع ردود أفعاله، فيعقبها بأفعال تدحضها وتهدمها، ولهذا جاء المقطع السردي **ظفرنا والله بصيد** مشبّعا بمظاهر الثقة في النفس؛ من خلال توظيفه لملفوظات دالّة على النجاح في تمرير خطّته نحو: **ظفرنا** التي جاءت في سياقها الدال على الماضي(فعل التحقيق)، وملفوظ **الله(لفظ جلالة)** لتأكيد فعل التحقيق، وكذا ملفوظ **صيد** للدلالة على امتهان عيسى بن هشام فعل الاحتيال، ونجاحه في اختباره، كما يمكن ربط المقطع بالوظيفة التحفيزيّة، كون وظيفة التمييز أدّت إلى تحفيز الفاعل المحتال على إنجاز خطّته للإطاحة بضحيّته المحتملة.

من بين إستراتيجيّات المواجهة عند الفاعل المحتال تركيزه على العرف الاجتماعي، ويقتضي ذلك وجوب اشتغال مبدأ التعاون الذي حدّده الناقد الإنجليزي **هربرت بول غرايس (Herbert Grise Paul)** (1913-1988)، في آليّات الكمّ التلفّظي، والكيف الدلالي، والحضور العلائقي، والجانب التأثّري، وقد افتتح الفاعل المحتال برنامجه بضخّ كميّة ملفوظات تجمع بين التحيّة والعرف الاجتماعي، من خلال مبادرته إلى إلقاء التحيّة على السّواديّ، في صورة خادعة تعبّر عن موقف تضامني بين أفراد مجموعة اجتماعية ينتمون إلى نفس العرف الاجتماعي، **"وحيّاك الله أبا زيد"**[17] فمجتمع البدو- الذي ينتمي إليه السواديّ- يتميّز بالسذاجة والبلاهة ، وتعتمد إستراتيجيّة المواجهة على الانتقال من ممارسة الكفاءة الذهنيّة إلى تفعيل الكفاءة القوليّة (التلفّظيّة)(énonciative)، عبر مبادرة الفاعل المحتال إلى إلقاء التحيّة على السوّاديّ، **"فمن مبادئ التعاون في الحوار ومن مقتضايته التداوليّة أنّ التحيّة توجب ردّا والسؤال يفرض جوابا"**[18]، وكذا تحسيسه بنوع من التضامن والتكافل الاجتماعي، ذلك أنّ سكان البدو غالبا ما تتملّكهم عقدة النقص أو الدونيّة من المجتمع الحضري الذي يرون فيه سذاجتهم وانحطاطهم الاجتماعي، سواء تعلّق الأمر بالجانب البرّاني (اللباس والمظهر والهيئة واللغة)، أو بالجانب الجوّاني(الفطنة، والذكاء، وخفّة الظل)، فالتحيّة تبدو في ظاهرها مظهرا اجتماعيّا دالّا على التعاضد والتكافل، ولكن في باطنها تضمر خطابات الكديّة، والنصب، والاحتيال؛ إذ **"ينبغي في غالب الأحيان تأويل أقوال بسيطة باعتبارها متوفّرة على خصائص الخبر والحكم وعلى حدث إقناعي"**[19]، فقد أدّت الكفاءة الذهنيّة، والقوليّة إلى افتراض وجود خطب في شخصيّة الضحيّة المحتملة، أنزلها منزلة البلهاء والسّذج، وأدّى إلى تحطيم واجهتها الحجاجيّة، أو ربمّا حيازة الفاعل المحتال خصائص غير متلفّظ بها جعلته ينزل مقاما طيّبا عند الضحيّة المحتملة، فعيسى بن هشام –من هذا المنظور- يعدّ الأقرب إلى شخصيّة **الجانتلمان (Gentilhomme)** التي تتميّز بمظهرها الخارجي الأنيق (الهندام، وتسريحة الشعر، واللغة الأنيقة والمهذبة)، ولكنّه يتمتّع بقدرة رهيبة على الاحتيال والنصب على الآخرين، ولعلّ السّواديّ قد انجذب إلى عيسى بن

هشام بسبب مظهره الخارجي الذي ينبئ عن لطفه، ولباقته، وأناقته- لا يوجد في المقامة نص صريح يدلّ على ذلك إلاّ فيما تعلّق بالكفاءة القوليّة-، وتميّزت تحيّة الفاعل المحتال بالاسترسال؛ لبثّ الطمأنينة لدى الضحية المحتملة، وإضعاف مقدرته الذهنيّة على التركيز في الأشياء وتحديد معالمها، في ظل ضعف المقدرة الجسديّة التي أنهكت السّوداويّ، وعدم قدرته على مسايرة نسق الأسئلة المسترسلة من طرف الفاعل المحتال **"من أين أقبلت، وأين نزلت، ومتى وافيت،"** [20]، وهكذا عمد الاسترسال إلى تقويض المستوى الذهني للسّوداويّ، وتجريده من كل ردّة فعل محتملة، تكون غير متوقّعة لدى الفاعل المحتال، كما اشتغل على اكتشاف نقاط ضعفه المتعلّقة بالجانب الإدراكي، ويبدو أنّ الاسترسال الإنشائي حال دون قدرة الضحية المحتملة على اكتشاف حيلة الفاعل المحتال؛ بسبب الجهد الجسدي، وكذا غياب الجهد الذهني المرتبط بالإدراك والمعرفة، وبذلك نسف خطاب الاسترسال(التحيّة) عنصرين اثنين عند السوداويّ هما : المفاجأة، والاختيار، فالأوّل مردّه خلخلة ذهن السوداويّ ودخوله في نوبات الشك والريبة والحذر، ما قد يجعله في الأخير ينتصر لصوت الانسحاب، وأمّا الثاني فيضطرّ فيه السوداويّ إلى الاختيار بين قبول الصداقة أو رفضها، ويبدو أنّ الفاعل المحتال أدرك أنّ مخطّطه قد يؤول إلى الفشل، إذا لم يستطع جذب الضحية المحتملة وإقناعها بخطته، بخاصة بعد ردّ السوداويّ بأنّه **"ليس أبا زيد، بل أبا عبيد"**[21]، وهنا اضطرّ الفاعل المحتال إلى الاستنجاد بالخطّة البديلة، كون الأولى وضعت لجذب الضحية وجعله في موضع المطمئنّ، وفتح مواجهة كلامية، وعيسى بن هشام يعلم تمام العلم أنّ كفاءته القولية قادرة على الإطاحة بالسوداويّ، وتتمثّل الخطة البديلة عنده في الاشتغال على الوتر الأسري، لذا بادره بالسؤال عن أبيه **"فكيف حال أبيك أشاب كعهدي أم شاب بعدي"**[22]، وهنا تتحوّل المواجهة لصالح السوداويّ، كون درايته بموت أبيه كفيلة بكشف مخطط عيسى بن هشام، ومن ثمّة الانسحاب، **"فقال: قد نبت الربيع على دمنته"** [23]، ولكنّ الفاعل المحتال كان ذكيّا في التعقيب على ردّ السوداويّ بأنّ استثمر الكفاءة القوليّة" **إنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم"**[24]، وهي كفاءة مرتبطة بالمرجعية الدينيّة، جعلت السوادي منتبها لقدسيّة الآية القرآنية، وبذلك يضيع عليه القبلي والبعدي، بالإضافة إلى الكفاءة الجسديّة "**ومددت يد البدار إلى الصدار أريد تمزيقه"**[25] ، ما جعل السوداويّ يردّه عن فعل ذلك، وهو استنتاج أوّلي(INFERENCE) بوقوع الضحية المحتملة في شباك الفاعل المحتال، فلما أدرك عيسى بن هشام وقوع السّوداويّ بدأ الاشتغال على بادرة حسن الضيّافة –ما دام السّوداويّ واقع في غفلته، غير آبه بنهايته- "**هلمّ إلى البيت نصب غذاء أو إلى السوق نشتر شواء"**[26] ، ويبدو أنّ الفاعل المحتال عمد إلى ربط واجب الضيافة بأربعة عناصر أساسيّة وهي: البيت، والغذاء، والسوق، والشواء، فالبيت ذكر لجعل السوداويّ مطمئنا، كون البيت يحمل دلالة اجتماعيّة تعبّر عن الثقة والطمأنينة، وأمّا الغذاء فلوضعه موضع

الضيف الذي وجب إكرامه وضيافته، كما ربط السوق بالشواء؛ لاستمالته على قبول دعوته، ذلك أنّ السوق يكون فيه السّوادي موضع المخيّر؛ أي يختار ما يشاء من أصناف المأكولات باعتباره ضيفا، وأمّا البيت فيكون فيه موضع المسيّر والمجبر على تناول ما وضع له من الأكل، وهنا عمد الفاعل المحتال إلى تهيئة الظروف المناسبة للضحية المحتملة؛ ليكون مرتاحا وهو يتناول الغذاء، ثمّ إنّ طلبه لمختلف أصناف الشواء والحلوى دليل على كرمه وحسن ضيافته، ويبدو أنّ أمام الفاعل المحتال إستراتيجيّة أخيرة لفك رباط الصداقة المزعومة مع الضحيّة، فبعد أن أشبع رغباته البيولوجيّة (الجوع)، لجأ إلى استعمال كفاءة التخلّص التي تخضع المقامة بموجبها" **لعمليّة إعادة سمنطقة تقضي بنقل نص من سياق إلى سياق آخر"**[27]، تكون بمثابة خلاصه من جحيم الدفع إذا قبض عليه، وقد استعان بحجة إحضار الماء **"ليقمع هذه الصّارة ويفثأ هذه اللقم الحارة"**[28]، وهكذا وقع السّوادي في شرك عيسى بن هشام بدليل أنّه لم يعلّق، وكأنّه اطمأنّ لكلماته، واستسلم لرغباته، فعيسى بن هشام امتلك سحر التخاطب والتواصل والإقناع، وكل هذه العناصر الخطابية جعلت السوادي يذعن له دون مقاومة.

تميّز نص المقامة بالتطوّر الدلالي، فالبعدي ينسف القبلي، ويقع ذلك على عاتق الفاعل المحتال الذي صوّره السارد على أساس العوز البيولوجي (إشباع حاجة الجوع)، وكان للقارئ أن يطمئنّ لهذا المكدي الذي كان يبحث عمّا يسدّ به جوعه، فكما يقال: **"ألي طلب كرشو طلب العفو"**، ولكن وظيفة حسن التخلّص التي مارسها ضدّ السّوادي، وجلوسه بالقرب من المطعم، جعلنا نبني تصوّرا نفسيّا غير التصوّر البيولوجي البراغماتي، ذلك أنّ التطوّر الدلالي أدّى إلى اكتشاف حقيقة المكدي الذي امتهن هذه الحرفة لإشباع رغباته البيولوجيّة، والنفسية، والسلوكيّة، ويمثّل سلوكه اتجاه الضحيّة فعلا ساديّا(sadisme)، فعيسى بن هشام لم يحتل على السّوادي لمجرّد نزوة بيولوجيّة عابرة، وإلاّ لكان انصرف وذهب في حال سبيله، بمجرّد نجاح خطتّه؛ بل نصب عليه لأنّ" **العدوان شهوة عنده تطلب لذاتها، فالعدوان في حدّ ذاته ما هو إلاّ غاية "** [29]، ودليل ذلك مشاهدة الفاعل المحتال للسواديّ، وهو يتعرّض للضرب من طرف الشوّاء، دون أن يقوم برد فعل اتجاه هذا السلوك" **فاعتلق الشوّاء بإزاره. وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال أبو زيد: أكلته ضيفا، فلكمه لكمة، وثنى عليه، بلطمة"**[30]، فتغيّر سلوك المكدي من العوز البيولوجي إلى الاضطراب النفسي (السادية)، كان كفيلا بتغيير موقف القارئ اتجاهه من مؤيّد لهذا العوز البيولوجي(رؤية إنسانيّة)، إلى معارض للسادية (رؤية نفسية مرضيّة).

3- المقصدية ومآزق المعنى في نص المقامة البغدادية.

تعدّ المقصدية (Intentionnalité) في نص المقامة البغدادية جوهر العلاقات الجوّانيّة والبرّانيّة، فهي تشتغل على تمثّل المعاني وإسقاطاتها الفنيّة، والخطابيّة، والسيّاقيّة، والمقصدية

في أبسط تعريفاتها **"قدرة العقل على توجيه ذاته نحو الأشياء وتمثيلها"**[31]، وإذا تتبّعنا مسار المقصدية في النص، وجدنا أنّه تنوّع وتوزّع بحسب أقوال الفاعل المحتال وأفعاله،سواء تعلّق الأمر بالظاهر المرتبط بالكدية والاحتيال، أو بالباطن والمضمر الذي يحيل على سياقات تاريخيّة، وسوسيوثقافيّة، ونحن إذّاك أمام مقصديّات: مقصدية الكاتب، ومقصدية النص، ومقصديّة الراوي، ومقصديّة الشخصيّة البطلة، ومقصدية القارئ، ويمكن -في هذا السياق- ربط المقصدية بالحمولة الأيديولوجيّة، كونها ممارسة فنيّة وتيميّة تقوم على طروحات فكرية بالدرجة الأولى، فعيسى بن هشام يمثّل أنموذجا للفرد المكدي في العصر العباسي، وهو صورة معبّرة عن مدى الانحطاط الاجتماعي، والأخلاقي، والإنساني الذي وصل إليه المجتمع العباسي، ففكرة العوز البيولوجي (الجوع) التي تشكّل صورة فردية داخل نص المقامة البغدادية هي إسقاط جمعي لمجموعات اجتماعيّة أصابها البؤس واليأس، هكذا قد تلتقي مقصدية المؤلف والشخصيّة البطلة على مستوى الانعكاس الفنّي والجمالي لتيمة العوز، كما يعدّ ركيزة من ركائز الإنجاز يكون فيه الفاعل **"واعيا بخلفياته القصدية ومدركا لأبعاده السلوكيّة ومتمثّلا لظواهره الذهنية قبل أن ينجز كلاما ويتحقّق مضمونه القصدي"** [32]، وقد أصاب الهمذاني عندما ربط موضوع الكدية بالطرفة، ذلك أنّ النكتة تلد من رحم الأزمة والمعاناة، وإذا عدنا إلى عيسى بن هشام؛ باعتباره يشغل دورين سرديين هما: الحكي والشخصيّة الحكائية البطلة، وجدنا أنّه تلوّن ببعض الصفات التي جعلته شخصيّة بعدّة أوجه، فعلى مستوى الحكي، التزم عيسى بن هشام بتقديم الحكاية أمام الجماعة في المجلس(المقامة)، وهو التزام فنّي بالدرجة الأولى كونه مرتبطا بالميثاق السردي بين الكاتب(بديع الزمان الهمذاني) والراوي(عيسى بن هشام)، ولكن شغف المغامرات التي عاشها أبو الفتح الإسكندري، جعلته يتحوّل من راوٍ منفصل عن مرويه في الزمان والمكان، إلى راوٍ متماهٍ مع مرويه، يروي ويصف أحداثا **"تتطلّب عرضا للموقف"** [33]، لذا حاول تقمّص دور أبي الفتح الإسكندري؛ ليعايش مغامراته، وحيله، ومكدياته الممزوجة بالطرفة، وقد أخذ عنه الكفاءة القولية، والذهنيّة ، والسلوكيّة.

إذا كان بداية نص المقامة يصوّر حاجة البطل إلى الأكل، بعدما اشتهى الأزاد، وهو تصوّر بيولوجي يرتكز على تصوّرات غريزيّة، لا يمكن للإنسان التحكّم فيها، فإنّ نهاية الحكاية ترتكز أيضا على تصوّر غريزي مرتبط- كما ذكرنا سابقا- بالمفهوم النفسي المبني على حب إيذاء الغير، فالتطوّر الدلالي في نص المقامة البغدادية كشف لنا حقيقة عيسى بن هشام الذي تحوّل من شخص يبحث عن إشباع رغبته البيولوجيّة إلى شخص يبحث عن إيذاء الناس، ولهذا اعتقد بعض النقاد• أنّ فن المقامة لا يرقى أن يكون جنسا أدبيا؛ لأنّه يشتغل على إيذاء الناس في جيوبهم، وكبريائهم، وحتّى في انتمائهم وهويّتهم.

إذا انتقلنا إلى حدود مقصدية النص، نجد أنّه قدّم قراءة سوسيونقدية ساخرة عن الوضع العباسي المشبّع بقيم الانحطاط، قراءة غلّفها الهمذاني بمقاربة لغوية أقرب إلى المناطحات البديعية؛ حيث تتحوّل الكلمات إلى مرصوفة بديعية تجمع بين الائتلاف والاختلاف اللفظي، والجرس الموسيقي، فالكاتب من خلال مقاماته-لاسيما المقامة البغداديّة- أراد أن يغرس زهرة أدبية داخل مصبّ-إذا جاز التعبير- ملوّث، فالمقامة -من هذا المنظور-تحصيل لمتغيّرات سياسيّة، واجتماعيّة، وثقافيّة، واقتصاديّة، وحتّى دينيّة، ويبدو أنّ الموضوع(الكدية والحيلة)، ونمط الحكي(النكتة والطرفة) متساوقان ومنسجمان، فهما وجهان لعملة واحدة، فالبؤس يشيّد فضاء النكتة**(ظفرنا والله بصيد)**[34]، كما أنّ النكتة تعبّر عن حالة البؤس**(كم قلت لذاك القريد. أنا أبو عبيد. وهو يقول: أنت أبو زيد)**[35] .

ترتكز مقصديّة النص على عدّة معايير فنيّة وخطابيّة، تبني معماريّته وتحدّد شروط اشتغال المعنى فيه، بما يسمح بالموازنة بين **"عناصر المقال اللغوية والأدبية، وبين عناصر المقام ومقتضياته"**[36]، وأهمّ خاصيّة ارتكز عليها النص لتمرير خطاباته ثنائيّة الإيجاز اللفظي والتكثيف الدلالي، وقد قاربنا ذلك في مجمل العلاقات الحواريّة بين عيسى بن هشام والسّواديّ؛ إذ سجّلنا حضورا دلاليا مكثّفا ضمنيا(implicite) يتوارى خلف المقاطع السردية الموجزة، فقد توصّلنا إلى اكتشاف المتخاطبين، وما يشكّل حضورهما الحسيّ، والذهني، والقولي والسلوكي عبر مقاطع سردية قدّمت باقتضاب؛ بسبب خصوصيّة المقامة -في حدّ ذاتها- التي تفترض إيجاز لفظي لصالح التكلّف البديعي، وينفتح نص المقامة أمام دعامتين دلاليتين هما: الدعامة السياقيّة، والدعامة الفنيّة، ويمكن تمثّل ذلك وفق المخطط التالي:

نص المقامة ⟵ الهمذاني ⟵ اشتغال المسكوت عنه ⟵ مقصدية سياقيّة.

نص الحكاية ⟵ عيسى بن هشام ⟵ الاشتغال المقامي ⟵ مقصدية فنيّة.

تقوم الدعامة السياقية على إشارات لغوية تكون بمثابة دليل مرجعي على استهداف البرّاني في سيرورته التاريخيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة، فقد اشتغل المقطع السردي **(اشتهيت الأزاد وأنا ببغداد)** على ثلاثة مسارات هي ظرفية المقام، وبلاغة الفعل، والضرورة البدبعيّة.

أ- **الحيّز المكاني وظرفية المقام**: ونقصد به التنوّع المكاني في نصوص الهمذاني، ويدلّ هذا التنوّع الفضائي على حركية الفاعل المحتال؛ لاحترافه الكدية والاحتيال على الناس، نحو بغداد وهو حيّز مكاني يدلّ على تغيير المسار، ذلك أنّ الفاعل المحتال غالبا ما يغيّر وجهته من مكان لآخر ؛ خشية التعرّف علية والانتقام منه، ودائما ما يبدأ نص المقامة بذكر المكان باعتباره علامة لغوية دالة على طباع أهله، وخصائصهم الاجتماعيّة، والثقافيّة.

ب- **بلاغة الفعل وقصدية الكدية:** نص المقامة الهمذانيّة مغلّف بعديد العلامات المضمرة، كونه ينفتح على اختلاف الظاهر والمضمر، ويتجلّى ذلك في ملفوظي **اشتهيت الأزاد**، فهذان الملفوظان القبليان ينسفان أفق توقع القارئ في كون ظاهرة الاحتيال نابعة من عوز الفاعل المحتال وحاجته إلى إشباع رغبته البيولوجيّة (الجوع)، فملفوظ الاشتهاء(من الشهوة) لا يعبّر بالضرورة-الضرورة في حدّها الأدنى-عن حالة العوز البيولوجي القهري، فقد يكون الاشتهاء من باب الرغبة في الشيء -إن وجد طبعا-، فملفوظ الاشتهاء لا يرغم صاحبه على مخالفة الأعراف والتقاليد الاجتماعيّة؛ إلاّ في صورة المكدي المحتال الذي يضعه ضمن أولويّاته التي لا يمكن تجاهلها؛ وإلاّ أصيب في كبريائه، -فالطبع يغلب التطبّع-، وموضوع الاحتيال حالة نفسية- بالدرجة الأولى- تبدأ في شكل نزوة عابرة، وتنتهي في صورة إدمان قهري، وقد ظهر عيسى بن هشام في صورة المحاكي لأبي الفتح الأسكندري ذلك أنّ **"الفرد الجديد يمكن أن يستبدل بأناه المثالي للجماعة، والمتجسّد في الزعيم أو القائد..."** [37]، فعلى هذا الأساس، حاول عيسى بن هشام تقليد أبا الفتح الإسكندري باعتباره ملازما له في جلّ المقامات، ما أدّى إلى تحوّله إلى وجه من أوجهه المكديّة، من هذا المنظور يمكن للمقاربة النفسيّة النسقيّة أن تكشف العديد من الأسرار النفسية المضمرة، والدفينة داخل نصوص المقامة.

ج- **الضرورة اللغوية وقصدية البديع** : تنتمي مقامات الهمداني إلى مدرسة الصنعاء اللفظية التي أرسى دعائمها اللغوي ابن دريد•، ويعدّ التكلّف سمة بارزة في نصوصها، بخاصة التكلّف اللفظي البديعي، وقد زينّ نص المقامة الهمذانيّة بعديد الألوان البديعية، فإلى جانب التكلّف البديعي الذي وظّفه الهمداني في مقاماته، نجده عمد إلى تخيّر ألفاظه –في بعض المقاطع السردية- على حساب المعنى، ففي المقطع السردي (**اشتهيت الأزاد وأنا ببغداد**)، نقارب اهتمام الراوي بزخرفة المبنى على حساب المعنى، فجمع بين الأزاد وبغداد، والأزاد نوع من التمر، ولا يعقل أن يقوم الفاعل المحتال بمناورة غير محمودة العواقب من أجل بعض التمار، أضف إلى ذلك تلوّن مائدة الطعام بأشهى أصناف الطعام(الشواء)، وأنواع الحلوى(اللوزينج)، وقد جاء الاشتغال البديعي ليغطّي على قيميّة المعنى، فإذا كان في الشعر جوازات، يجوز فيها مخالفة النظام الشعري، فإنّ في المقامة جوازات، يجوز فيها مخالفة النظام الدلالي.

إلى جانب ذلك استطاع الهمذاني أن يبرز كفاءته البديعيّة من خلال وصف مائدة الشّواء، فقد استطاع أن يجمع بين عادات أهل بغداد الغذائية(أكل الشواء)، والثقافة الصحيّة(تناول الدسم، ثم الحلويات، وأخيرا الماء)، إلى جانب أصناف الحلويّات(اللوزينج التي تشبه إلى حدّ كبير البقلاوة)، كما استطاع -بعلامات خطابية مضمرة- أن يصوّر علاقة الفرد العباسي الحضري بالآخر البدوي، وتجلّى ذلك في خصوصيّة العلاقة التواصليّة بين عيسى بن

هشام والسّواديّ، علاقة تقوم على خطاب الهيمنة والتملّك والسلب، ومن ثمّة الإقصاء، فقد امتلك عيسى بن هشام خصائص الإنسان الآتي من المدينة الذي لا يتوانى في وصف السّواديّ بالصيد، بسبب امتلاكه مجموعة صفات فضحت انتماءه البدوي، ولعلّ هذا الطرح العرقي-إذا جاز القول- تكرّر بشكل ملفت للانتباه في مقامات الهمذاني، فالحضري في نص المقامة يتميّز بالحيلة، والفطنة، والكفاءة الذهنية، والقولية، والسلوكيّة، والقدرة على تمييز الحاذق والأبله، يحتال على البدوي دون تعب أو جهد، ويسلبه مع ذلك ماله وكبرياءه(**ظفرنا والله بصيد**)، بينما يتميّز البدوي بالسذاجة، والبلاهة، وعدم القدرة على تمييز المحتالين والمكديين، يعتمد على الجهد العضلي دون الجهد الذهني والفكري، وهذا ما يجعلهم –في الغالب- ضحايا محتملين(**يسوق بالجهد حماره، ويطرّف بالعقد إزاره**)، وقد أبرزت هذه التقاطبيّة حقيقة الصراع الخفّي بين أهل البدو والحضر، حقيقة تضاف إلى مجموعة الصراعات الداخليّة التي أنهكت الدولة العباسيّة، وكانت سببا في انحطاطها وسقوطها .

- الخاتمة

أفرزت قراءتنا لنص المقامة البغدادية -من منظور تداولي- مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- استطاعت الخطاطة السردية لنص المقامة البغدادية أن تبرز عناصر فنية قارة وثابتة، وظيفتها ترهين الخطاب القصصي لصالح القيم المهيمنة، واختصّ الترهين بقراءة العناصر المتواترة عبر جميع المقامات، مرورا بالاستهلال السردي الذي تضمّن صيغ الإخبار والإسناد، ومرورا بالتيمة المهيمنة التي عالجت موضوع الكدية، وبمقاربة التيمات المتناسلة ذات الطابع الاجتماعي، والثقافي، والتي أخذت شكل الطرفة والنكتة. ، وانتهاء بالقفلة السردية المتمثّلة في العظات الشعرية.
- أقرّت المقاربة التداوليّة لنص المقامة البغدادية بوجود مقام تخاطبي يجمع الفاعل المحتال بالضحيّة المحتملة، وقد اشتغل على توظيف إستراتيجيّة مكوّنة من مجموعة كفاءات ذهنيّة، وقوليّة، وسلوكيّة، وجسديّة، من لدن الفاعل المحتال، عملت على استنزاف ما تبقى من كفاءات الضحية المحتملة الإدراكية والسلوكيّة.
- استطاع الفاعل المحتال وهو يتكلّم أن ينجز أفعالا ، عبر مبدأ التعاون، ومبدأ الاستنتاج، ومبدأ حسن التخلّص، وقد عبّر التداعي السردي عن فعل الإنجاز، من التحيّة، إلى المساءلة،

إلى الدعوة إلى الأكل، إلى التسلّل والاختفاء، وبذلك فنص المقامة يعدّ أنسب النصوص النثرية ذات الطابع القصصي للاشتغال التداولي.

- تنوّعت المقصدية في نص المقامة الهمذانية وتوزّعت عبر مجموعة من العناصر التي شكّلت الجانب الدلالي في جانبيه البّراني والجوّاني، فهناك مقصديّة المبدع التي حاول رسم مسارين لها، مسار فنّي جوّاني برسمه معالم جنس نثري قصصي جديد يقوم على التكلّف البديعي، ومسار سياقي برّاني يفضح ويدين فيه بصورة مضمرة حال المجتمع العباسي المتدهور والمنحط، دون أن ننسى المقصدية التداوليّة التي تنضوي تحتها الممارسة اللغوية، والتي أفضت إلى مقاربة إستراتيجيّة المواجهة وتطعيمها بمختلف الكفاءات التي ذكرت سابقا.
- استطاع النص أن يخلق مسارين للفاعل المحتال(عيسى بن هشام)، مسار ابتدائي يبيّن حالة العوز البيولوجي(الجوع)، ومسار نهائي له يجسّد العوز النفسي المرضي ، فبطل المقامة، وهو يتظاهر بمشاهدة تعرّض الضحيّة للضرب من طرف الشوّاء، أبان عن هوس نفسي مرضي بتعذيب الآخرين، ويمكن ردّه إلى حالة الاغتراب الجمعي في تلك الفترة، وكذا جنوح المكبوتات - جراء عدم القدرة على التغيير-نحو الشعور بالدونية.

الإحالات والهوامش:

• المقامة لغة تعني المجلس، وهناك من قال بأنّها تعني ما يقال داخل المجلس، فهي تضمّ راويا وجماعة من الناس تجمعهم الحكاية، وأمّا التعريف الاصطلاحي، فقد اتّفق الباحثون والنقاد على أنّها فن نثري قصصي، صيغ بأسلوب بديعي، أطروحته تقوم على سرد حكاية تجمع بين الطرفة والعظة، وقد اختلف النقاد في نشأتها ورائدها، فهناك من يقول إنّها ظهرت مع ابن دريد، ونفر آخر ينسبها لابن فارس، ونفر آخر قال بأحقيّة بديع الزمان الهمذاني التربّع على عرش المقامة، وهناك من نسبها للحريري، على أنّ القول الراجح يعود إلى النقاد والباحثين والمستشرقين الذي نسبوها إلى الهمذاني؛ لعدّة الاعتبارات، منها ضياع الآثار الأدبية لابن دريد، وانتفاء الطابع القصصي في مقامات ابن فارس، وحضور القصة، والموضوع، واللغة في حكايات الهمذاني، كما أنّ الحريري أقرّ في مقدّمة مقاماته بأحقيّة الهمذاني في تربّعه على عرش المقامة، واعتباره رائدها دون منازع.

• يعدّ أبو الفتح الإسكندري بطل مقامات الهمذاني، فعلى لسانه يروي عيسى بن هشام مغامراته، ومكدياته، وحيله، وقد اشتغل بطلا في جلّ المقامات(50 مقامة)، بينما اشتغل عيسى بن هشام بطلا في مقامتين، ومنهما المقامة البغدادية، وكثرت السجالات النقدية حول شخصيّة أبي الفتح الإسكندري، فهناك من عدّها شخصيّة تخييلية لا تحمل مرجعية تاريخيّة وتسجيليّة، وهناك من عدّها بديع الزمان الهمذاني، وهناك من عدّها شخصيّة تاريخيّة لها حضور في زمن بديع الزمان

الهمذاني، وعلى رأسهم الباحث محمّد عبد المنعم خفاجي، فقد اعتبر –انطلاقا من بعض الطروحات المدعومة بوثائق تاريخية- بأنّ الشاعر أبا الدلف هو الشخصيّة التخييليّة، فقد كان الهمذاني وثيق الصّلة بأبي الدلف، وراويا لأشعاره، كما تميّز برحلاته ومغامراته حول الأمصار، وهو عنصر رفيع للمقام الساساني الذي يعود له الفضل في ابتكار حرفة الكدية.

• قسّم معظم النقاد والمؤرّخين نصّ المقامة إلى ثلاثة عناصر أساسيّة وهي: الراوي، والبطل، والقصّة، وجاء هذا التقسيم ليبيّن الاشتغال القصصي فيها، ومن ذلك فعل الحكي الذي يؤطّره الراوي عيسى بن هشام، والحضور الشخوصي والمتمثّل في أبي الفتح الإسكندري؛ باعتباره شخصيّة رئيسّة يقود الحدث، وبطل مكديّاته، والقصّة التي تقوم عليها المقامة وهي متنوّعة ومتعدّدة من مقامة لأخرى، غير أنّها تجتمع كلّها في حقل تيمي واحد مرتبط بالكدية، وقد حاولت مخالفة هذا الطرح بأن قسّمت نص المقامة إلى ثلاثة عناصر هي: الاستهلال السردي، والتيمة المهيمنة، والقفلة السردية، وقد اندفعت إلى هذا الطرح –الذي أجده منطقيا- بسبب خصوصيّة النص السردي العربي القديم الذي تعدّ الطروحات الثلاثة بمثابة لوازم سردية تتكرّر باستمرار من مقامة إلى أخرى(المقامة الأصفهانية، والمضرية والأسدية، والمكفوفيّة، البخاريّة، ...الخ)، ومن حكاية إلى أخرى(حكايات ألف ليلة وليلة، وحكايات كليلة ودمنة...الخ)، وكذا التيمة المهيمنة(كتيمة الكدية في المقامة، وتيمة البخل في حكايات الجاحظ، وتيمة الرعية والسلطان في حكايات كليلة ودمن...الخ) ، والقفلة السردية التي تحمل ملامح الموعظة، والنصح، والإرشاد، وعلى هذا الأساس قسّمت نص المقامة البغدادية، وحاولت دراسة كل عنصر دراسة تجمع مقولات المقاربة التداوليّة.

[1] أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحي: مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص71.

[2] محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجلات تطبيقه، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص83

[3] عبد الله إبراهيم: النثر العربي القديم، بحث في ظروف النشأة وأنظمة البناء، منشورات جامعة السابع من أفريل، الزاوية ليبيا، ط1، 2004، ص173.

[4] المرجع نفسه: ص215.

• قدمّت شخصيّة السّواديّ تحت مصطلح **الضحيّة المحتملة**، ثم ختمت بمصطلح **الضحيّة**، وهذا ما تقرّه المقاربة التداوليّة؛ أي الاستعمال الذي يفضي بالانتقال من وضع خطابي إلى وضع خطابي آخر، فالسّواديّ بدأ مساره السردي باعتباره ضحيّة محتملة، على أساس احتماليّة فشل خطّة الفاعل المحتال في الإيقاع به، ثمّ تغيّر وضعه المقامي من الضحيّة المحتملة إلى الضحية، كون خطة الفاعل المحتال نجحت، واستطاع أن يسلبه ماله لصالح عوزه البيولوجي (الجوع).

[5] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، مقاربة تداولية معرفية لآليّات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، الدار البضاء، المغرب، دط، 2006، ص200

[6] عبد الفتاح كليطو: المقامات، السرد والأنساق الثقافيّة، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001، ص

[7] محمد رجب النجار: الشطار والعيّارين، حكايات في التراث العربي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 1981، ص37.

[8] المقامة البغداديّة: ص74

[9] إبراهيم صحراوي: السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف، والبنيات، دار التنوير، الجزائر، د ط، 2020، ص109.

[10] عبد القادر بقشي: التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، أفريقيا للشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، ص42.

[11] عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العرب، الدار التونسيّة للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1988، ص489.

[12] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، مقاربة تداولية معرفية لآليّات التواصل والحجاج، ص61.

[13] حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصوّر نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص285.

[14] المقامة البغداديّة، ص71.

[15] المقامة البغداديّة، ص71.

[16] أحمد يوسف: السيميائيات التداوليّة، من البنية إلى السياق، ضمن مؤلف جماعي موسوم بالتداوليات وتحليل الخطاب، بحوث محكمة، الإشراف والتقديم، حافظ إسماعيل علوي، ومنتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1014، ص38

[17] المقامة البغداديّة، ص71.

[18] محمّد نجيب العمامي: مقاربة النص السردي والتخييلي من وجهة تداوليّة، المقامة البغداذية للهمذاني أنموذجا، ضمن مؤلف جماعي موسوم بالتداوليات وتحليل الخطاب، ص243.

[19] باتريك شارودو : الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، تر: أحمد الوردني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2009، ص67.

[20] المقامة البغداذية، ص71.

[21] المقامة البغداذية، ص71.

[22] المقامة البغداذية، ص71.

[23] المقامة البغداذية، ص72/71.

[24] المقامة البغداذية، ص72.

[25] المقامة البغداذية، ص72.

[26] المقامة البغداذية، ص72.

[27] محمّد الناصر العجيمي: اجتياز الحدود في مساءلة مفهوم الخطاب السجالي، دار المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، ط1، 2010. ص42

[28] المقامة البغدادية، ص73.

[29] إبراهيم فضل الله: علم النفس الأدبي، مع نصوص تطبيقيّة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص48.

[30] المقامة البغدادية، ص74.

[31] خليفة الميساوي: القصدية في الخطاب السجالي، ضمن مؤلف جماعي موسوم بالتداوليات وتحليل الخطاب، ص295

[32] المرجع نفسه، ص312.

[33] عبد الله إبراهيم، النثر العربي القديم، بحث في ظروف النشأة وأنظمة البناء، ص176.

• ذهب كل من الناقدين زكي مبارك في كتابه النثر الفنّي، وشوقي ضيف في كتابه الفن ومذاهبه في النثر العربي إلى اعتبار مقامات الهمذاني فنّا لا يتاح له أن يكون جنسا أدبيّا؛ بسبب الحضور التيمي الذي يدعو إلى التسوّل والكديّة، وبسبب معجمه الذي وصف بغريب اللغة العربية، فقد وصفه زكي مبارك بالفن التافه، وأمّا الناقد شوقي ضيف فوصف معجمه بالغريب، مغيّبين الدوافع الحقيقيّة التي جعلت الهمذاني يكتب مقاماته، ومنها الدافع الفنّي الذي كان يبتغي الهمذاني من خلاله المحافظة على اللغة العربية من اللحن والضياع، بعدما تكالبت الأمم الأخرى على الحضارة العباسيّة سيّاسيّا، واجتماعيّا، وثقافيّا، ودينيّا، وأيضا الدافع التيمي، فالأدب هو انعكاس فنيّ لواقع بجميع تمفصلاته الحدثية والتيمية، وإن كانت الكدية الساسانية قد ظهرت وازداد وهجها عصر الهمذاني، كان لزاما عليه أن يكتب عنها في مقاماته.

[34] المقامة البغدادية، ص71.

[35] المقامة البغدادية، ص74.

[36] حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصوّر نسقي لبلاغة الخطاب، ص314

[37] إبراهيم فضل الله: علم النفس الأدبي مع نصوص تطبيقيّة، ص80.

• يمثّل ابن دريد (933/837) منبعا أصيلا من منابع فن المقامة، وإن لم يكن في مستواه الفنّي والأجناسي، ولكن يمكن عدّه ملهم الهمذاني وغيره في فن المقامة، بخاصة في الأربعين حديثا التي رواها عنه أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني في كتابه زهر الآداب وثمر الألباب، وقد جاءت أحاديثه محشوّة بغريب الألفاظ، وقصير الجمل، وجميل النكتة والطرفة، وهذا ما يجعلها أقرب لفن المقامة، ومن اهمّ أحاديثه نذكر: حديثه في حج أبي نواس، وحديث العفاف، كما جاء ذكر ابن دريد في كتاب الأمالي لأبي علي القالي.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

- إبراهيم صحراوي: السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف، والبنيات، دار التنوير، الجزائر، د ط، 2020.
- إبراهيم فضل الله: علم النفس الأدبي، مع نصوص تطبيقيّة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011.
- أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحي: مقامات بديع الزمان الهمذاني، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 2005.
- باتريك شارودو : الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، تر: أحمد الوردني،دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2009.
- حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصوّر نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014.
- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، مقاربة تداولية معرفية لآليّات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2006.
- عبد الفتاح كليطو: المقامات، السرد والأنساق الثقافيّة، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001.
- عبد القادر بقشي: التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، أفريقيا للشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط..2006
- عبد الله إبراهيم: النثر العربي القديم، بحث في ظروف النشأة وأنظمة البناء، منشورات جامعة السابع من أفريل، الزاوية ليبيا، ط1، 2004.
- عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العرب، الدار التونسيّة للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1988.
- مجموعة من المؤلفين: التداوليات وتحليل الخطاب، ضمن مؤلف جماعي موسوم ، بحوث محكمة، الإشراف والتقديم، حافظ إسماعيل علوي، ومنتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1014.
- محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجلات تطبيقه، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- محمّد الناصر العجيمي: اجتياز الحدود في مساءلة مفهوم الخطاب السجالي، دار المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، ط1،2010.
- محمد رجب النجار: الشطار والعيّارين، حكايات في التراث العربي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 1981.

- رومنة المصادروالمراجع العربية:

- Ibrāhīm Ṣaḥrāwī : al-sard al-‘Arabī al-qadīm, al-anwā‘ wa-al-waẓā’if wa-al-binyāt, Dār altnwyr aljzā’r D, Ṭ, 2020
- Ibrāhīm Faṣl Allāh : ‘ilm al-nafs al-Adabī ma‘a nuṣūṣ tṭbyqyt Dār al-Fārābī, Bayrūt, Lubnān, Ṭ1, 2011
- Abū al-Faḍl Aḥmad ibn al-Ḥusayn ibn Yaḥyá : Maqāmāt Badī‘ al-Zamān al-Hamadhānī, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Bayrūt, Lubnān, ṭ2, 2005.
- Bātryk shārwdw : al-Ḥajjāj, bayna al-naẓarīyah wāl’slwb ‘an Kitāb Naḥwa al-ma‘ná wālmbná, tara : Aḥmad alwrdny, Dār al-Kitāb al-jadīd almtthḍh, Banghāzī, Lībiyā, Ṭ1, 2009
- Ḥasan al-Mawdin : Balāghat al-khiṭāb al’qnā‘y, Naḥwa tṣwwr nsqy li-balāghat al-khiṭāb, Dār al-Kunūz al-Ma‘rifah al-‘Ilmīyah lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, ‘Ammān, al-Urdun, Ṭ1, 2014.
- ‘Abd al-Salām ‘Ashīr : ‘adaman ntwāṣl nghyyr, muqārabah tadāwulīyah ma‘rifīyah li-ālīyāt al-tawāṣul wa-al-ḥijāj, Ifrīqiyā al-Sharq, al-Dār al-Bayḍā’, al-Maghrib, ṭ2, 2006.
- ‘Abd al-Fattāḥ Kilīṭū : al-Maqāmāt, al-sard wa-al-ansāq al-Thaqāfīyah, tara : ‘Abd al-kabīr al-Sharqāwī, Dār Tūbqāl lil-Nashr, al-Dār al-Bayḍā’, al-Maghrib, ṭ2, 2001.
- ‘Abd al-Qādir bqshy : al-Tanāṣṣ fī al-khiṭāb al-naqdī wa-al-balāghī, Ifrīqiyā al-Sharq, al-Dār al-Bayḍā’, al-Maghrib, D Ṭ, 2006
- Abd Allāh Ibrāhīm : al-nathr al-‘Arabī al-qadīm, baḥth fī ẓurūf al-nash’ah wa-anẓimat al-binā’, Manshūrāt al-sābi‘ min Afrīl, al-Zāwiyah, Lībiyā, Ṭ1, 1988
- Majmū‘ah min al-mu’allifīn : altdāwlyāt wa-taḥlīl al-khiṭāb, ḍimna mu’allif jamā‘ī, Buḥūth Maḥkamat, al-ishrāf wa-al-taqdīm, Ḥāfiẓ Ismā‘īl ‘Alawī, wmntṣr Amīn ‘Abd al-Raḥīm, Dār Kunūz aln‘rfh al-‘Ilmīyah lil-Nashr wal-Tawzī‘, ‘Ammān, al-Urdun, Ṭ1, 2014
- Muḥammad al-Akhḍar al-Ṣubayḥī : madkhal ilá ‘ilm al-naṣṣ wa-majālāt tṭbyqyh, Manshūrāt al-Ikhtilāf, al-Jazā’ir, al-Dār al-‘Arabīyah lil-‘Ulūm Nāshirūn, Bayrūt, Lubnān, Ṭ1, 2008

– Muḥammad al-Nāṣir al-‘Ujaymī : Ijtiyāz al-ḥudūd fī Musā’alat Mafhūm al-khiṭāb al-sijālī, Dār al-Maghāribīyah lil-Ṭibā‘ah wa-Ishhār al-Kitāb, Tūnis, Ṭ1, 2010
– Muḥammad Rajab al-Najjār, al-shuṭṭār wāl‘yyāryn, Ḥikāyāt fī al-Turāth al-‘Arabī, ‘Ālam al-Ma‘rifah, Silsilat kutub thaqāfīyah Shahrīyat, yuṣdiruhā al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wa-al-Funūn wa-al-Ādāb, al-Kuwayt, D Ṭ, 1981